خبرتها بنفسي في ذلك الشعب. فإن أنا قلت لك إنّ الشعب الروسي شعب صبور، وديع، نقي الطوية، إنساني النزعة، وإنّه إلى ذلك شعب مؤمن وتقي، فلستُ أعني أنّ كلّ عامل أو عالم أو تاجر أو سياسي في روسيا هو كذلك.

لقد هالني، في جملة ما هالني، من الشعب الروسي وقتئذ أنّه كان مصنفاً بالتشريع لا بالتقاليد طبقات طبقات. أسفلها طبقة الفلاحين والعمال. وأعلاها طبقة الأشراف. وهذه الأخيرة كانت تماشيها في النفوذ طبقة الجندية العالية وطبقة الكبار من رجال الدين. وقد كانت طبقة الفلاحين والعمال تستهويني وتسحرني على قدر ما كانت الطبقات العليا تثير نفوري واشمئزازي. فما مرّ بي فلاح ورفع لي قبّعته احتراماً وحياني بقوله: صباحاً سعيداً يا «بارِنْ» (أي يا سيد) إلّا انقبض قلبي، وانكسر جفني، وصعد دم الخجل إلى وجهي. ولا مررت يوماً من أيام الصيف بحقل انتشر فيه الحاصدون والحاصدات ورأيت أجسامهم تنحني وتستقيم، ووجوههم تستحمّ بالعرق، ثمّ سمعت أصواتهم تتماوج مع الزرع بأغانٍ موقعة أحسن التوقيع، إلّا تهلّلت روحي، وضحكت عيناي، وباركت نفسي الزرع والزارعين والحصاد والحاصدين. ولا أبصرتُ عاملاً يحمل عدّة عمله على كتفه، وإذ يمرّ بكنيسة يقف بخشوع ويرسم على وجهه علامة